أن تتجاوزوا الحد ، وهذا هو معنى قوله الحق :

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾

(من الآية ٣١ سورة الأعراف)

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

أولا نسأل : ما هو الرزق ؟ الرزق هو ما انتفع به . فالذى تأكله رزق ، والذى تشربه رزق ، والذى تلبسه رزق ، والذى تتعلمه رزق ، والصفات الخلقية من حلم وشجاعة وغيرها هى رزق ، وكل شىء ينتفع به يُسمى رزقاً .

ولكن حين يقول الحق : « وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيباً » فهو ينصرف إلى ما يطعمه الإنسان . وحين يقول سبحانه ذلك فالمقصود به أن يأكل الإنسان من الرزق الحلال الطيب . إذن فهناك رزق حرام ، مثال ذلك اللص الذى يسرق شيئا ينتفع به ، هذا رزق جاء عن طريق حرام ، ولو صبر لجاءته اللقمة تسعى إلى فمه لأنها رزقه . أو الرزق هو ما أحله الله ، وهنا اختلف العلماء وتساءل البعض : هل الرزق هو الحلال فقط والباقى ليس رزقاً ؟ وتساءل البعض الأخر : هل الرزق هو ما ينتفع به ومنه ما يكون حلالاً ومنه ما يكون حراماً ؟ الحق يقول :

﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا ﴾

(من الآية ٨٨ سورة المائدة)

كلوا ما رزقكم هذا أسلوب ، « ومما رزقكم الله » هذا أسلوب آخر. فـ ما رزقكم الله أى نأكله كله ، وهذه لا تصلح ؛ لأننا لا نأكله كله طبعا بل إننا سنأكل بعضه ؛ لأن الذى يؤكل ويطعم إما أن يكون صالحاً لإيجاد مثله ، وإما أن

يكون غير صالح لإيجاد مثله، فعندما يحتفظ الإنسان بالدقيق مثلاً فهو لا ينتج سنبلة قمح، إذن يجب علينا أن نأكل بعضاً ونستبقى بعضاً صالحاً لأن ينتج مثله، فعندما نحتفظ بالقمح فهو يصلح أن يأتى بسنابل القمح ؛ لذلك جاء الأمر بأن نأكل بعض ما رزقنا الله حتى نحتفظ ببعض الرزق لا نأكله، وهذا يعنى أن نحتفظ بامتداد الرزق، فلو أكل الإنسان كل القمح الذى عنده فكيف يحدث إن أراد أن يزرع ؟ إذن فاستبقاء الرزق يقتضى أن نحتفظ ببعض الرزق لنصنع به امتداداً رزقياً فى الحياة .

والرزق الحلال هنا نوعان : ما يصلح لامتداده فيجب احتجاز بعض منه من أجل أن يستخدمه الإنسان فى استجلاب رزق آخر . وما لا يصلح لامتداده كالدقيق مثلاً . نأكل بعضه ونحتفظ ببعضه لمن لا يقدر على الحركة . ولذلك نجد الحق فى سورة يوسف يقول عن رؤيا الملك :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(سورة يوسف)

هنا قال أهل تفسير الرؤيا :

﴿ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ (سورة يوسف)

إنه اضطراب فى الجواب ؛ لأن كونها أضغاث أحلام أنها لا معنى لها، وقولهم بعد ذلك : « وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » فمعنى ذلك أن لها تأويلاً وقد كان لها تأويل، ثم مَن الذى رأى الرؤيا ؟ إنه الملك . ويأتى الحق بيوسف مفسراً للرؤيا . إذن فلا ضرورة أن يكون الرائى مؤمناً ولا صالحاً . وقد يقول قائل : كيف يطلعه الله على مثل هذه المسائل ؟ ونقول : قد تكون الرؤيا إكراماً للرائى، وقد تكون الرؤيا إكراماً للمعبر الذى يعرف التأويل، وهى هنا إكرام للمعبر وهو سيدنا يوسف . وعرف سيدنا يوسف كيف يفك « شفرة » الرؤيا . والعجيب فى الرؤيا أن البقر الهزيل يأكل البقر السمين . وهنا قال يوسف :

﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة يوسف)

أى كلوا البعض وليكن قليلا قليلا ، لا تسرفوا فيه لتنتفعوا فى السبع الشداد وهن سنين الجدب لتأكلوا فيها ما جمعتموه فى سنين الخصب ، اتركوا البعض الآخر . لاستمرار النوع . وتبين أن أفضل وسيلة لحفظ حبوب القمح فى عصرنا هى أن نتركه فى سنابله وكذلك الذرة نتركها فى غلافها . وكان تعبير الرؤيا دقيقاً لأنه يريد أن يستبقى للناس حياتهم فى زمن الجدب ، ويستبقى لهم كذلك الضرع الحيوانى ، فتأكل الناس الحب ، وتأكل الماشية التبن المتبقى ، وكذلك ضمن الحق مقومات الحياة لكل ما يلزم للحياة . ونلحظ أن المأكول فى هذه الآية هو القليل ، أما الباقى فهو الكثير فى سنابله ، هذا فى أيام الرخاء ؛ فماذا عن أيام الجدب ؟

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

(سورة يوسف)

أى أن الناس ستأكل فى أعوام الجدب الكثير من الحبوب التى فى المخازن ويجب أن يحتفظوا بقليل مما يحصنون فى هذه المخازن ، وذلك لاستبقاء جزء من القمح للزراعة .

إذن فـ (من) فى قول الحق سبحانه وتعالى : (وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً) للتبعيض أى كلوا بعض ما رزقكم الله ، فإن كانت الأشياء مما يكون بقاؤها سبباً لامتداد نوعها فالنوع يكون متصلاً . مثال ذلك رجل عنده بذور البطيخ وزرعها ، وبعد أن جاءت الثمار أكلها هى والبذور فمن أين يزرع فى العام القادم ؟ كان يجب أن يحتفظ ببعض منها لتكون بذوراً . وكان يجب أن يحتفظ بجزء من البطيخ ليعطى منه الجار أو المحتاج .

إذن فقول الحق سبحانه وتعالى : « مما رزقكم الله » تصلح لاستبقاء النوع وتصلح لصرف الزائد إلى غير القادر . « واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » أى أنك حين تتقى من تؤمن به إلهاً فليس فى ذلك غضاضة ؛ لأنك آمنت أنه إله وقوى ، والغضاضة فى أن تأتمر بأمر مُساوٍ لك ، أما الانقياد والائتمار لأمر الأعلى منك ، فهذا لا يكون سبباً فى الغضاضة إنما هو تشريف لك وتكريم .

ونجد الحق يشرع لنا ذلك فى قصة سيدنا موسى مع السحرة ، فألقى موسى عليه السلام عصاه ، ورآها السحرة حية . والساحر ينظر إلى الشيء الذى تم سحره فيراه على حقيقته وصورته الأصلية، أما المسحورون بالرؤية فهم الذين يرون الشكل المراد لهم رؤيته . ورأى السحرة حبالهم مجرد حبال؛ وعصا موسى هى التى صارت حية .

هنا عرفوا أنها مسألة أخرى فماذا قالوا ؟ :

﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ (٤٨) ﴾

[سورة الشعراء]

لقد عرفوا أن هذا أمر خارج عن نطاق البشرية . إذن فما كان من أمر السحرة تجاه قوم فرعون هو تخييل للنظر :

﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) ﴾ [من الآية ٦٦ سورة طه]

وقال الحق :

﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ (١١٦) ﴾ [من الآية ١١٦ سورة الأعراف]

أما موسى عليه السلام فحين ألقى العصا أول مرة ووجدها حية خاف لأنه رأى فى ذلك قلباً للحقيقة . أما عند السحرة فليست حبالهم حيات حقيقية ولكنها سحر لأعين الناس أى تخييل للناظر . ومثال آخر هو سيدنا سليمان عندما أرسل لبلقيس ملكة سبأ . وجاء رسوله يقول لها :

﴿ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) ﴾ [سورة النمل]

فماذا قالت لحاشيتها من رجال القتال ؟ :

﴿ مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) ﴾ [من الآية ٣٢ سورة النمل]

وهنا عرفت الحاشية أن المسألة تتطلب رأياً سياسياً ؛ فقالوا :

﴿ قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾

[سورة النمل]

الرأى إذن هو من حق السياسى الذى يزن الأمور بموازين العقل وموازين الاحتمال الواقعة ، وموازين رد الفعل ، وأدارت بلقيس المعركة سياسياً ، فأرسلت هدية من مقام ملكة ، فإن راقته الهدية فهو طالب دنيا ويريد خيرها ، وعندما وصل رسلها بالهدية ، ماذا قال سليمان ؟

﴿ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

[سورة النمل]

وهنا عرفت بلقيس أن الإسلام أمر ضرورى ، وها هى ذى الدقة لنعرف أن الأمر من المساوى هو الذى يعطى عزة فى الآمر وذلة فى المأمور ، أما إذا كان الأمر من غير المساوى ومن الأعلى ـ سبحانه ـ فلا ذلة فيه لأحد. وكان إيمان بلقيس إيماناً ملوكياً . فقالت :

﴿ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

[سورة النمل]

إنها لم تقل أسلمت لسليمان وإنما قالت : «وأسلمت مع سليمان لله» . إذن فلا غضاضة فى إيمانها . وذلك حتى لا يظن شعبها أنها ذهبت به إلى حضيض الذلة فى أن يحكمهم إنسان آخر . لكن هى وسليمان محكومان لله رب العالمين ، ولا غضاضة فى ذلك : ونعود إلى قوله جل شأنه :

﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

[من الآية ٨٨ سورة المائدة]

أى : اجعلوا للإيمان حيثية ، وما دمت قد آمنت وتأتمر بأمر من تؤمن به . فأنت لا تؤمن إلا بمن تثق فى أنه يستحق الإيمان . وقوله أولاً فى الآية السابقة:

﴿ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾
(سورة المائدة)

وقوله فى تذييل هذه الآية :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ .
(من الآية ٨٨ سورة المائدة)

هو تسوير وإحاطة لطاعة بإيمانين ؛ إيمان خوطبوا به ، وإيمان أقروا به . ومن بعد ذلك يقول الحق :

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

عندما ننظر فى قول الحق : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » نعرف أن « يؤاخذ » من « آخذ » ويأخذ من أخذ ، فإن قلت : « أخذت فلاناً بكذا » فذلك دليل على أنك أنزلت به نكالاً لأنه لم يدخل فى تعاقد خيرى معك ، ولكن أن تقول : « آخذته » . كأن المفاعلة حدثت بأن دخل معك فى عقد الإيمان ولذلك يأخذ الحق

الكافرين أخذ عزيز مقتدر . ولكنه يؤاخذ المؤمنين ، لماذا ؟ لأن المؤمنين طرف فى التعاقد ، أما الكافرون فليسوا طرفاً فى التعاقد ؛ لذلك يأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

إذن فالمؤاخذة غير الأخذ ، المؤاخذة هي إنزال عقوبة بمن له معك عهد فخالفه بعمل جريمة نُصَّ عليها ؛ فلا يؤاخذه أبداً بجريمة لم ينص عليها ، ولا يتم توقيع عقاب على أحد دون تحذير مسبق . ولذلك ففى القانون المدنى يقولون : لا عقوبة إلا بجريمة ولا جريمة إلا بنص .

إذن لا بد من النص أولاً على العقاب على الجريمة ؛ لأن النص على فعلٍ ما بأنه جريمة يجعل الإنسان يراجع نفسه قبل الإقدام على مثل هذا الفعل . أما عدم وجود نص على أن ذلك الفعل جريمة يجعل الإنسان حراً فى أن يفعله أو لا يفعله لأنه فعل مباح .

وعلينا أن نلحظ التعاقد فى قوله الحق : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » . وعندما ننظر إلى معنى : « اللغو » نجده الشيء الذى يجرى على اللسان بدون قصد قلبى ؛ مثل قول الإنسان فى اللغة العامية : لا والله أو : والله أن تأتى للغداء معنا ، هذا هو اللغو . أى هو الكلام من غير أن يكون للقلب فيه تصميم . وسبحانه وتعالى قد خلقنا وهو الأعلم بنا علم ـ سبحانه ـ أن هناك كلمات تجرى على ألسنتنا لا نعنيها . ودليل ذلك أن الأم التى تحب وحيدها قد تدعو عليه ، لكن ذلك بلسانها ، أما قلبها فيرفض ذلك . ولهذا يقول المثل الشعبى : أَدْعى على ابنى وأكره من يقول آمين .

إذن الحق سبحانه وتعالى علم بشريتنا ، وعلم أن اللسان قد يأتى بألفاظ لم تمر على قلبه فيقول سبحانه : « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم » واتبع الحق ذلك : « ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » . وساعة نرى كلمة : « ولكن » نعرف أن هناك استدراكاً ، والاستدراك هو إثبات ما يتوهم نفيه أو نفى ما يتوهم ثبوته . وساعة نرى كلمة « عقَّدتُم » فهى دليل على أنها عملية جزم قلبية ، وأن الإنسان قبل أن ينطق بالقسم قد أدار المسألة فى ذهنه وخواطره وانتهى إلى هذا الرأى .

إذن فاللغو هو مرور كلمة على اللسان دون أن تمر على القلب ، وضربنا مثلاً على ذلك وهو دعاء الأم على وحيدها . ونحن نرى أن هناك ألفاظاً كثيرة تمر على ألسنة قد تؤدى إلى الكفر ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم المبلغ عن الله يضع لنا صدق النية فيقول : (أخطأ من شدة الفرح) . قالها رسول الله تعليقاً على رجل قال :

« اللهم أنت عبدى وأنا ربك »[1] .

هذا هو اللغو ومن رحمة الله بنا أنه يعفو بعميق وواسع رحمته فيقول لنا :« لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان » . وكلمة «عقدتم» دليل على أن اللسان لم يعقد شيئاً فحسب ولكن عقده بإحكام قوى . فساعة تبالغ فى الحدث فأنت تأتى له باللفظ الذى يدل على المعنى تماماً بتمكين وتثبيت . وعلى ذلك فكلمة «عقَّد» غير «عَقَدَ» إذن فكلمة «عقَّد» أى أن الإنسان قد صنع عقدة محكمة . ومثال على التأكيد قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [من الآية ٢٣ سورة يوسف]

قد يقول قائل : ألم يكن يكفى أن يقول الحق سبحانه : «وغلقت الأبواب»؟ ونقول : لا إن الحق قد أتى بالفعل الذى يؤكد إحكام الإغلاق . فإغلاق الأبواب يختلف من درجة إلى أخرى ؛ فهناك غلق للباب بلسان «طبلة» الباب ؛ وهناك غلق بالمزلاج ، وقوله الحق : « وغلَّقت الأبواب » أى أن امرأة العزيز بالغت فى غلق الأبواب . وكذلك قوله الحق : « عقَّدتم الأيمان » . أى جالت فى قلوبكم جولة تُثبِّت صدق نيتكم فى الحلف . وهناك صورة أدائية أخرى تلتقى مع هذه الصورة فى المعنى ، حين قال الحق سبحانه :

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ ﴾ [سورة البقرة]

ونلحظ هنا أن القلوب قد كسبت ، فما الذى تكسبه القلوب فى مثل هذه الحالة؟ نعرف أن الكسب هو وجود حصيلة فوق رأس المال . والكسب الزائد فى القسم ،

(١) من حديث رواه الإمام مسلم .

هو أن يؤكد الإنسان بقلبه هذا القسم ؛ أى أن القسم انعقد باللسان والقلب معاً
وسبب نزول آية سورة المائدة (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) أن الصحابة الذين حرموا على أنفسهم طيبات المطاعم والملابس والمناكح وحلفوا على ذلك فلما نزل قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

قالوا : كيف نصنع بأيماننا ؟ فنزلت هذه الآية أى أن تحريم الحلال لغو لا كفارة فيه ، ونعلم أن الإنسان لا يصح له أن يحلف على شيء ليس له دخل فيه ؛ كقول إنسان ما : والله لن أصلى . إن مثل هذه اليمين لا تنعقد ، ولذلك لا كفارة لها . لكن إن قال : والله لأشربن الخمر . هنا نقول له : امتثل إلى ما جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليأت الذى هو خير وليكفر عن يمينه »[1] .

والحق سبحانه وتعالى يقول : « ولكن يؤاخذكم بما عقّدتم الأيمان » إذن فهناك استدراك يتعلق باليمين المؤكدة وهى تستدعى المؤاخذة . فكيف تكون المؤاخذة وهى عقوبة ، على الرغم من أنه لا عقوبة إلا بنص ؟ إن الحق سبحانه وتعالى ستر العقوبة ومنعها بالكفارة : « فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » . والكفارة هى ستر للعقوبة . فهل معنى ذلك أن الإنسان تلزمه الكفارة مادام قد عقّد الأيمان ؟ لا ، تكون الكفارة فقط حين تحنث فى القسم فلم تبر فيه . فتكون الكفارة فى هذا المجال كالآتى : إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم ، أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة ، أو صوم ثلاثة أيام لمن لم يجد .

---

(١) رواه أحمد ومسلم والترمذى عن أبى هريرة .

والمناسب فى الكفارة يختلف فى مفهوم المفتين باختلاف الحانث ، ومثال ذلك أن خليفة فى الأندلس حلف يميناً وأراد أن يؤدى عن اليمين كفارة ، فجاء إلى القاضى منذر بن سعيد وسأله عن كفارة هذه اليمين ؛ فقال : لا بد أن تصوم ثلاثة أيام . وكان يجلس شخص آخر فأشار للقاضى إشارة فلم يعبأ القاضى منذر بن سعيد بتلك الإشارة . وخرج القاضى ومعه ذلك الشخص ، فسأل القاضى : يا أبا سعيد ، إن فى نفسى شيئاً من فتواك ؛ لماذا لم تقل للخليفة إن كفارة اليمين عتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين ؟ فقال القاضى منذر بن سعيد : أمثل أمير المؤمنين يزجر بعتق رقبة أو إطعام عشرة مساكين ؟

وهذا يدلنا على أن القاضى منذر بن سعيد قد أجهد نفسه ليختار الكفارة التى تزجر . وهذا يعلمنا أن الكفارة فى جانب منها زجر للنفس وفى جانب آخر جبر للذنب . وقد رجح القاضى منذر بن سعيد جانب الزجر على جانب جبر الذنب ؛ لأن الخليفة لن يرهقه إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو عتق أكثر من رقبة[1] .

وفى الإطعام لعشرة مساكين من أواسط ما نطعم به الأهل ، قد يقول قائل : هل الأوسطية هنا للكمية أو الكيفية ؟ ونقول : يراعى فيها الكمية والكيفية . فإن كانت وجبة الإنسان مكونة من رغيف واحد فليعرف أن مِنْ أهله مَن يأكل فى الوجبة الواحدة ثلاثة أرغفة فيكون الأوسط فى مثل هذه الحالة رغيفين مع ما يكون من أدم كلحم ودسم . وكذلك الكسوة ؛ أن يكسو الإنسان الذى يكفر عن يمين عشرة مساكين بما يستر العورة وتصح به الصلاة ؛ كإزار ورداء أو قميص وعمامة ، أو أى ملابس تسترهم . وهانحن أولاء نجد أن كفارة تحرير رقبة تأتى فى المرتبة قبل الأخيرة ويأتى بعدها قول الحق : « فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام » . إذن فالحق لم يرتب الكفارة وإنما علينا أن نختار منها الكفارة الملائمة .

ويأتى الحق من بعد ذلك بالقول : « واحفظوا أيمانكم » والحفظ هو عدم التضييع . أما كيف نحفظ أيماننا ؟ فنقول : إن على الإنسان ألا يجرى اليمين على لسانه ، هذه واحدة . والثانية : أن يحاول الإنسان ألا يحنث فى اليمين . وهذا

(١) الجمهور على أنه لا يكفر بالصيام إلا إذا عدم هذه الثلاثة الأشياء وهى : الإطعام والكسوة ، وعتق الرقبة .

يقتضى ألا يحلف الإنسان على شيء يقوله بلسانه ويخضعه لقلبه إلا إذا كان على ثقة من أنه سيجند كل جوارحه للقيام بهذا العمل الذى أقسم أن يقوم به ، وهذا هو معنى قوله الحق : « واحفظوا أيمانكم » .

ويذيل الحق الآية الكريمة : « كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تشكرون » . والشكر هو الثناء من المنَعَم عليه على المنْعِمِ بالنعمة ، فكأن هذه التشريعات تستحق منا الشكر ؛ لأنها جعلت اللغو غير مؤاخذ عليه ، ولأنها جعلت اليمين الذى عقّدته له كفارة ، وفى كل من الأمرين تيسير يستحق الشكر لله .

ويتابع الحق القول :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

ساعة تسمع كلمة : « إنما » فاعلم أنهم يسمونها فى اللغة « أداة قصر » كقولنا : إنما زيد مجتهد ، وهذا يعنى أننا قَصَرْنا زيداً على الاجتهاد . لكن إن قلنا : إنما المجتهد زيد ، فنحن فى هذه الحالة قَصَرْنا الاجتهاد على زيد . وساعة تقصر إنساناً على وصف فذلك يسمونه : « قصر موصوف على صفة » ، وعندما نقول : إنما زيد شاعر . فهذا يعنى أن زيداً شاعر فقط وهو ليس بكاتب أو خطيب . أما إن قلت : إنما الشاعر زيد ، فهذا يعنى أنه لا يوجد شاعر إلا زيد ؛ فكأنك نفيت عن الآخرين أنهم شعراء ، وأن زيداً فقط هو الشاعر ويحتمل أن يكون كاتباً وخطيباً وعالماً مع كونه شاعراً . إذن فساعة ترى « إنما » فاعرف أنها أداة من أدوات القصر .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ ﴾

(سورة المائدة)

أى إن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام كلها رجس من عمل الشيطان . والرجس هو الشيء الردىء الخبيث القذر . والقذارة والخبث هما من الأمور التى قد تكون حسية مثل الخمر ، وقد تكون معنوية كالأنصاب والأزلام ؛ وجمع الحق سبحانه فى هذه الآية الأمرين معاً . ولم يقل إن الخمر هى عصير العنب أو عصير التفاح ، إنما جاء بالخمر التى تشمل كل ما يخامر العقل ويستره . وتعجب بعض العلماء من أن هذه الآية نزلت فى البلاد التى ليس فيها شيء من عصير العنب ، ذلك أنهم ظنوا أن عصير العنب فقط هو الذى يستر العقل ، لكن الحق جاء بالتحريم الشامل لكل ما يستر العقل . لماذا إذن تكون الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجساً من عمل الشيطان ؟

إنّ الحق سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان وجعله خليفة فى الأرض وسخر له كل شيء فى الوجود وطلب منه أن يعبده وحده وأن يعمر هذه الأرض . وأراد الحق أن يضمن للإنسان سلامة أشياء متعددة ؛ سلامة نفسه فلا يُعتدى عليها بالقتل أو غير ذلك ، وسلامة عقله فلا يُجنى عليه بما يستر آلية الاختيار بين البدائل ، وسلامة عرضه فلا يَلغ فيه أحد وحتى تأتى الأنسال التى تعمر الكون وهى أنسال طاهرة ، وسلامة ماله حتى يحفظ على الإنسان أثر حركته فى الحياة وحتى لا يأخذ غيره أثر حركته ، وذلك حتى لا يزهد العامل فى العمل ولا يعود الطاقات أن تأخذ من غير عملها فتكسل وتتواكل ، فالإنسان إذا ما اعتاد أن يأخذ من غير عمل صار العمل صعباً عليه ، وهكذا كانت صيانة المال لا تبدد طاقة ولا تهدر حقا ، ولا تعطى غير ذى حق حقا لغيره ، وهكذا حتى لا يشيع العجز الاصطناعى فى الكون . ولذلك قال الحق وهو مانح كل مال :

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)



أى أنه ـ وهو المانح سبحانه وتعالى ـ قد احترم حركة الإنسان فلا يستمرىء أحد البطالة . وعندما تنتشر البطالة فإن الإسلام يعالج الأمر بحكمة بالغة ؛ فهو يطلب من الوالى أن يسبب لهم الأسباب ليعملوا . وذلك حتى لا يتعودوا على الأخذ بغير عمل لئلا تكون مصيبة على المجتمع . وأراد سبحانه بالشريعة السمحاء أن يحمى الإنسان من كل ما يبدده ، فحينها حرم الخمر ، أى منع عن الإنسان ستر العقل ، ذلك أن ميزة الإنسان على الحيوان هى العقل .

إن الإنسان يختلف عن الحيوان بأنه يحفظ حياته بالعقل ، أما الحيوان فيحفظ حياته بالغريزة . ولذلك فالحيوان لا يملك إلا رداً واحداً إذا ما تم الاعتداء عليه ؛ الكلب يعض المعتدى والقطة تخمش المعتدى ، أما الإنسان فعندما يعتدى عليه أحد فهو يختار بين بدائل للرد على العدوان ، إما أن يضرب وإما أن يقتل وإما أن يسامح .

ومثال لذلك نراه فى الريف ، عندما يحاول راكب الحمار أن يجبر الحمار على القفز على قناة صغيرة فيها مياه يرفض الحمار ذلك تماماً ومهما ضربه راكبه فهو يرفض القفز ؛ لأن غريزته تمنعه من ذلك . أما الإنسان فقد ينتابه الغرور ويظن أنه قادر على القفز فوق القناة فيقفز لكنه قد يقع فى المياه . وتوجد المجازفة عند الإنسان ، لكنها لا توجد عند الحيوان بمقتضى الغريزة .

ومثال آخر من عالم الحيوان . نجد ذكر الجاموس يقترب من الأنثى ليشمها فإن وجدها حاملاً لا يقربها ، هكذا الحيوان . أما الإنسان فلا . والحمار يتناول طعامه من البرسيم مثلا ما يشبعه ولا يزيد أبداً فى الطعام مهما ضربه صاحبه ؛ لأنه محكوم بالغريزة ، أما الإنسان فقد يأكل فوق طاقته .

وهكذا نجد الغريزة هى التى تعصم الحيوان ، والعقل هو الذى يعصم الإنسان . ولذلك لا يملك الحيوان القدرة على الاختيار ، ولكن ميزان غرائزه لا يختل أبداً . أما ميزان الغرائز عند الإنسان فقد يختل .

لقد ميز الله الإنسان عن الحيوان بالاختيار بين البدائل بالعقل ، ولذلك لا يصح ولا يستقيم من الإنسان أن يطمس هذه القدرة بالخمر . فإن طمس قدرة الاختيار، فإن غرائزه في هذه الحالة لا تنفعه لأنها غير مؤهلة لحمايته، ولذلك نجد الذي يطمس عقله يضع نفسه في مرتبة أقل من الحيوان ؛ لأن الحيوان تحميه الغريزة ، والإنسان يحفظه عقله ، وهو في هذه الحالة قد طمسه وغطاه ، وقد حرم الله الخمر لأنها تستر العقل . وكل ما يستر العقل خمر حتى ولو كان أصله حلالاً ؛ وذلك لأن العقل هو مناط التكليف . وكذلك حرم الله الميسر.

ولنر دقة الاسم الذي اختاره الله للقمار ، إنه « الميْسر » ولم يسمه « المعسر» ذلك أن أحداً لا يقبل على الميسر وهو يظن أنه سوف يخسر ، وكل من يلعبون القمار إنما يفعلون ذلك على أمل الكسب ؛ لذلك جاء بالاسم الذي يعبر عن حالة اللاعب للقمار إنه يلعب على وهم الكسب ، وإن كسب فالمكسب يُغْريه بالمزيد من اللعب .

والخسران يغري باللعب أكثر لعل كسباً يعرض الخسارة التي منى بها . وقد يبيع اللاعب للميسر كل ما يملك كي يعوض خسارته ومع ذلك فالكسب من الميسر هين على النفس تبدده وتنفقه فيما لا ينفع بل قد ينفقه فيما يضر ، فالمكسب ليس له والخسارة محسوبة عليه . والذين يلعبون الميسر مع بعضهم لا تربطهم صداقة أو محبة. فكل منهم حريص على أن يأخذ ما في جيب الآخر . وهذا اللون من اللعب يعطل القدرة على الكسب الحلال ؛ لأن الكسب الحلال يحتاج إلى حركة في الكون . والميسر يشل حركة الكاسب لأنه يزهد في العمل . والخسران يشل حركة الخاسر لأنه مهما سعى في الأرض فقد لا يستطيع أن يسدد ديونه.

إذن فالحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن للناس الا ينتفع أحد بشيء إلا نتيجة كده وعمله . والحق يريد أن يكون جسد كل إنسان من ناتج عرقه في عمل مشروع وكذلك أجساد من يعول . وأبلغنا أيضاً أن الأنصاب رجس من عمل الشيطان . والأنصاب ثلاثة قداح كانت توجد عند الكاهن ؛ قدْح مكتوب عليه أمرني ربي ، والقدح الثاني: مكتوب عليه نهاني ربي ، والقدح الثالث : غفل من الكتابة أي خال منها فلا علامة فيه . فإن كان في نية إنسان السفر أو الزواج أو التجارة فهو يذهب إلى الكاهن ليضرب له هذه القداح . فإن خرج القدح المكتوب عليه أمرني ربي فعل .

وإن خرج نهانى ربى لم يفعل . أما إن خرج القدح الغفل فهو يعيد ضرب القداح حتى يخرج أحد القدحين : إما الذى يحمل الأمر ، وإما الذى يحمل النهى . ولم يتساءل أحد لماذا عندما يخرج القدح الغفل لا يعتبر أن هذا أمر خارج عن نطاق التحريم . ويؤخذ على أنه إباحة واختيار يعمل أو لا يعمل . لقد أتساهم الحق ذلك حتى يدلنا على أن ذلك أمر كاذب جاء به الكهنة من عندهم . فإن سألهم سائل : من الإله الذى أمر ونهى ؟ هنا يقول القائل منهم : الله هو الذى أمر وهو الذى نهى . (والله يعلم إنهم لكاذبون) .

والحق سبحانه وتعالى حين ينهانا عن تلك الأمور فهو يريد للإنسان أن ينمى ملكة الاختيار بين البدائل . وعلى الإنسان أن يستنبط وأن يحلل وأن يعرف المقدمات فيدرسها ويحلل الخطوات ليصل إلى النتائج . لا أن يعطل القوة المدركة التى تختار بين البديلات ، فالخمر تستر العقل ، وكذلك الميسر يضع الإنسان بين فكى الوهم ، وكذلك الأنصاب تعطل القدرة على السعى والرضوخ للكهنة . وعندما تسأل شارب الخمر : لماذا تشربها ؟ يجيب : إننى أريد أن أستر همومى . وستر الهموم لا يعنى إنهاءها . ولكن مواجهة الهموم هى التى تنهى الهموم بالأسباب المتاحة للإنسان . فإن لم تقو أسبابك فالجأ إلى المسبب فى إطار قول الحق :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة النمل)

وعندما تستنفد أسبابك وتلجأ إلى الله فهو يعينك على الأمر الشاق المسبب للهموم . ولنا فى الرسول صلى الله عليه وسلم القدوة . فقد كان إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة . ومعنى « حزبه » أى خرج عن نطاق أسبابه . ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلجأ إلى رب الأسباب . وقد نجد من يقول : إننى أدعو الله كثيراً ولكنه لا يستجيب لى .

ونقول له : إما لأنك قد دعوت فى غير اضطرار ، وإما لأنك لم تلتفت إلى الأسباب ، وأنت حين تتجنب الأسباب فأنت ترفض يد الله الممدودة لك بالأسباب . وأنا أتحدى أن يوجد مضطر أنهى الأسباب ، ولا يأتى له الفرج . وأنت حين تدعو بحاجة وتتأخر عليك ، نقول لك : إنك دعوت بغير اضطرار .

وكثيراً ما أضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى المنزه دائماً - وأقول: هب أن تاجراً من تجار الجملة الكبار يجلس أمام المخازن التي يملكها وجاءت السيارات الشاحنة بصناديق بضائعه . والعمال يحملون البضائع ليضعوها في المخازن . وفجأة رأى عاملاً من عماله يكاد يقع بالصندوق الذي يحمله ، هنا نجد التاجر يهب بلا شعور لنجدة العامل . فما بالنا بالحق الذي خلق لنا الأسباب ؟ إنك إن استنفدت الأسباب فإن الله يعينك مصداقاً لقوله :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾

(من الآية ٦٢ سورة النمل)

إذن فالخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان . والأزلام هي نوع من الميسر ؛ فقد كانوا يحضرون الناقة أو الجزور ويذبحونها ويقسمونها إلى ثمانية وعشرين قسماً ويخصصون لإنسان نصيباً وللثاني نصيبين وللثالث ثلاثة أنصبة ، وللرابع أربعة أنصبة وللخامس خمسة أنصبة ، وللسادس ستة أنصبة ، والسابع له سبعة أنصبة . وكانوا يأتون بالقداح السبعة . قدح اسمه « الفذ » ويأخذ الفائز به نصيباً ، والقدح الثاني : « التوأم » ويأخذ نصيبين ، والقدح الثالث اسمه « الرقيب » يأخذ ثلاثة . والقدح الرابع اسمه « الحِلْس » يأخذ أربعة . والخامس هو « النافر » ويأخذ خمسة . والسادس اسمه « المُسْبِل » ويأخذ ستة . والسابع اسمه « المُعَلَّ » ويأخذ سبعة أنصبة . وهناك ثلاثة قداح هي المنيح والسفيح والوَغْد ، وهؤلاء الثلاثة لا يأخذون شيئاً بل يدفعون ثمن الذبيحة . وذلك رجس من عمل الشيطان .

إن النفس العاقلة لا تقبل على مثل هذه الأعمال ، بل لا بد أن يحرك أحد تلك الأطماع ، ذلك أن المخالفات إنما تنشأ من أمرين ؛ إما أن تكون من النفس ، وإما أن تكون من الشيطان . والمخالفة التي تكون من النفس هي التي تحقق شهوة من نوع خاص بحيث إذا زحزحت النفس عنها فهي تريدها . والمخالفة التي من نزغ الشيطان تختلف ، فقد يوعز الشيطان لإنسان بالسرقة ، فيرفض ، فيعرف الشيطان أن لهذا الإنسان مناعة ضد هذه المعصية ، فيوعز بمعصية أخرى ، فإذا وجد مناعة انتقل إلى معصية ثالثة ؛ لأن وسوسة الشيطان تطلب الإنسان عاصياً على أي لون من الألوان .

فإذا وقفت عند معصية بذاتها فاعلم أن ذلك من عمل نفسك ، وإن انتقلت بالوسوسة من معصية عزت على الشيطان إلى معصية أخرى فاعلم أنها من عمل الشيطان ولا دخل للنفس بها . والعاقل الذى يتمعن فى كل تلك المسائل المحرمة يرى أن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام هى أمور لا تستطيبها النفس غير المنزوغة من الشيطان ، فكأن قوله الحق : « رجس من عمل الشيطان » يدلنا على أن العاقل لا يمكن أن يصنع هذه الأشياء .

ويذيل الحق الآية : « فاجتنبوه لعلكم تفلحون » . ويأمرنا سبحانه باجتناب الرجس الذى جمع الخمر والميسر والأنصاب والأزلام ، والاجتناب هو أن يعطى الإنسان الشىء المجتنَب جانبه ، أى المنع للذرائع والأسباب والسد لها ؛ لأنك إن لم تجتنبها فمن الجائز أن قربك منها يغريك بارتكابها . وبعض الناس يظنون أن الخمر لم يأت لها تحريم وإنما جاء الأمر فيها بالاجتناب .

ونقول لهم : إن التحريم هو النص بعدم احتسائها ، وأما الاجتناب فهو أقوى من التحريم لأنه أمر بعدم الوجود فى مكانها . فإذا كان الحق قد قال فى قمة العقائد :

﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ ﴾ [من الآية ٣٠ سورة الحج]

فقد قال هنا اجتنبوا الرجس الذى يجمع الخمر والميسر والأنصاب والأزلام. والحق سبحانه وتعالى واجه العادات التى شاعت قبل الإسلام ليخلع الفاسد منها ولم يجابهها دفعة واحدة وذلك لتعليق النفس بها والإلف لها ، وإنما كان التحريم لها بالتدريج . لقد حزم الإسلام الأمر أولاً فى مسائل العقائد ، أما الأمور التى تترتب على إلف العادة فكان تحريمها على مراحل .

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى عن شىء إنه : «رجس» ، فذلك حكم الحق الذى لا يأتيه الباطل من بينْ يديه ولا من خلفه . ونحن نقبل هذا الحكم حتى ولو لم نفهم نحن معنى الرجس، أو لم نتأكد مادياً من أن الشىء المحرم هو من الرجس، ذلك أنه يكفى فى ذلك حكم الله الذى يرضخ له العبد المؤمن الذى قبل التكليف من

ربه ؛ لأن ربه مُؤتمن على كل مصالحه . ومادام الحق قد قال عن شيء إنه رجس ، فهو رجس ولا جدال فى ذلك .

أقول ذلك لأن بعضًا يظل متصيداً لأى ثغرة مفتعلة متسائلا : كيف يكون ذلك العمل أو ذلك الشيء من الرجس ؟ ونقول : إننا نرضخ لحكم الله تعالى وننفذ ما أمر به ، فهو إله مأمون على كل الخلق ، وتثبت لنا الأيام دائماً صدق قول الحق فى أن الأشياء التى قال عنها سبحانه إنها رجس ، هى من الرجس فعلاً ، فحين يقول سبحانه لخلقه : افعلوا كذا ، لا نسأله : وما علة ذلك التكليف ، ولكننا ننفذ أمر الحق ، ونكتشف فى أعماقنا فائدة ذلك التكليف .

أما عندما يكلفنا عبد مساوٍ لنا بشيء فلا بد أن نسأل : لماذا ؟ والعبد المساوى لنا عليه أن يقدم لنا العلة لأى فعل يطلب منا القيام به ، ولكننا لا نسأل الله عن علة التكليف لنا ، لأننا نؤمن بأنه إله حكيم ، والأيام ستثبت لنا أن قول الله حق . ومثال على ذلك نجد أن الذى لا يشرب الخمر امتثالاً لنهى الله عن ذلك الفعل ، هو إنسان مستقيم السلوك ، طاهر القصد ، ولا يتأتى منه نشاز فى الكون . أما الذى يشرب الخمر فهو معوج السلوك ، غير طاهر القصد ، ويتأتى منه نشاز فى الكون . وقد أثبتت التجربة أن شارب الخمر إنما يصاب بأمراض فى الكبد ويعانى من ارتباك فى إدارة حياته وكلماته . نحن نقرأ قول الله سبحانه :

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾

(من الآية ٢٨٢ سورة البقرة)

والتقوى - كما علمنا - أن نجعل بيننا وبين غضب الله وقاية ، لذلك نفعل ما أمرنا به . وحين نفعل أوامر الإله الحق فإننا نتعلم حكم الله فى الفعل . ومثال ذلك قوله الحق :

﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾

(من الآية ٤٥ سورة العنكبوت)

ونحن نعرف كيف تنهانا الصلاة عن الفحشاء والمنكر ؛ لأننا نسلم وجوهنا وقلوبنا لله فننفذ ما أمر به . وكذلك نجد فى الزكاة نماء . ونجد الحج يصفى النفس من أى

كبر ويغسل الذنوب . وكل فعل أمر به الحق نجد له الأثر فى نفوسنا بعد أن نقوم به . أما إن فعلت الحكم للعلة فذلك يبعد بك عن مرتبة الإيمان .

ونجد أن الطبيب يأتى لشارب الخمر بصورة ملتقطة للكبد بواسطة الموجات الصوتية أو الأشعة فيجد شارب الخمر صورة كبده وقد امتلأت بالتهرؤ وصارت عرضة لأمراض كثيرة ثقيلة وربما تعطلت وظائف الكبد فى بعض الأحيان ، وهنا يأمر الطبيب شارب الخمر أن يمتنع عن شرب الخمر . فهل امتناع شارب الخمر فى مثل هذه الحالة هو امتناع بسبب الإيمان أو بسبب الأمر الطبى ؟ إنه امتناع بسبب الأمر الطبى ، ويستوى فى ذلك المسلم العاصى والكافر . ولكن المؤمن الذى يمتنع عن شرب الخمر ابتداءً ، فهو قد امتنع لا لعلة الأمر ولكن لأن الأمر من الله، وهو يتبع أوامر الحق دون سؤال عن العلة . والمؤمن يأخذ الحكم من الله دون طلب تعليل منه ليشرح له أسباب المنع فى سلوكه .

والحق سبحانه قال : (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه) والعداوة المسبقة بين الشيطان وأبينا آدم عليه السلام بينها - سبحانه - بقوله للملائكة :

﴿ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إبْلِيسَ ﴾ [من الآية ٣٤ سورة البقرة]

وكان الشيطان موجوداً مع الملائكة، وكان الأولى أن يسجد هو ؛ لأن الأمر إذا كان للجنس الأعلى وهو الملائكة، فيجب أن ينسحب على الأدنى، لكنه عصى وقال :

﴿ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً (٦١) ﴾ [من الآية ٦١ سورة الإسراء]

إذن فالعداوة مسبقة بين آدم والشيطان، فكيف إذن نقبل نحن أبناء آدم وسوسته ؟ وكيف نقبل نزغه ؟ وكيف نقبل إغراءه ؟ لا بد إذن أن نتجنب ذلك لأنه رجس ومن عمل الشيطان ، حتى ننجو من كل سوء ، ويأتى لنا كل فلاح .

ويقول الحق :

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

لم يأت الحق هنا بالأنصاب أو الأزلام ؛ لأن المؤمنين لا يعتقدون فيها وانتهوا منها ، والخطاب هنا موجه للمؤمنين .

إذن لماذا قرن الحق التكليف بالنهى عن الخمر والميسر - من قبل - بالأنصاب والأزلام ؟ قال سبحانه ذلك ليبشع لنا الأمر ، فوضع الخمر والميسر مع الأنصاب والأزلام ، ولنفهم أن الحكم بالنهى عن الخمر والميسر جاء ليقرنها بالأنصاب والأزلام ، ومادموا مؤمنين فلا بد أنهم قد انتهوا عن الأنصاب والأزلام .

ويقول سبحانه : « إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء » . والإرادة هى تخصيص الممكن ببعض ما يجوز عليه ، وتتعلق الإرادة بمريد ، فهل يقدر على إنفاذ ما يريد أم لا يقدر ؟ إن كان يقدر على إنفاذ ما يريد ، فالقدرة تكون من بعد الإرادة .

وحينما يريد سبحانه وتعالى ، فالقدرة تبرز المراد ، فقدرته لا تتخلف ولا مراده يتخلف ؛ لأن كل شيء منفعل له سبحانه وتعالى ، وتختلف المسألة عند الإنسان والشيطان ، فالإنسان يريد ، ولكن أله القدرة على إنفاذ ذلك ؟ أحيانا تكون له بعض من القدرة على إنفاذ ما يريد ، وأحياناً لا .

والشيطان يريد ، لكن أيقدر على إنفاذ ما يريد ؟ إنه يقدر فى حالة إطاعة الإنسان له . وهكذا تكون إرادة الشيطان ، وهو يحب أن تحدث المعصية من الإنسان ،